إنما الناس حيث أنت

يمدح عبد الرحمن بن المبارك الأنطاكي:

[الخفيف]

صِلَةُ الْهَجْرِ لِي وَهَجْرُ الْوِصَالِ
نَكَسَانِي فِي السُّقْمِ نُكْسَ الْهِلَالِ(١)
فَغَدَا الْجِسْمُ نَاقِصاً، وَالَّذِي يَنْـ
ـقُصُ مِنْهُ يَزِيدُ فِي بَلْبَالِي(٢)
قِفْ عَلَى الدِّمْنَتَيْنِ بِالدَّوِّ مِنْ رَيَّـ
ـا كَخَالٍ فِي وَجْنَةٍ جَنْبَ خَالِ(٣)
بِطُلُولٍ كَأَنَّهُنَّ نُجُومٌ
فِي عِرَاصٍ كَأَنَّهُنَّ لَيَالِي(٤)

(١) يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بالغزل. نكس المريض: عادت إليه حاله المرضية بعدما تماثل إلى الشفاء. إنه هجر متواصل، فحبيبة الشاعر لا يتوقّف هجرها له ممَّا أرجع إليه الحالة النفسية الأليمة، وقد كاد يشفى، فثمَّة موعد قريب سيتحقّق، ولكنه تبخّر فإذا بتلك الحالة من المطر، تماماً كرحلة الهلال بين الضياء والظلمة.

(٢) البلبال: انشغال الفكر بالهموم والأحزان. ثمَّة علاقة بين جسم الشاعر وبين الهموم والأحزان، فبقدر ما يُصيبه من هزال وضعف تتضاعف هموم لا حصر لها ويشتدّ بلبال الشاعر وموج الهموم والأحزان تغرقه في بحرها.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٤. الدمنة: ما تقادم عهده من آثار الديار. الدوّ: الصحراء. ريَّا: اسم حبيبة الشاعر. الخال: الشامة في الوجه. يُخاطب الشاعر صاحبه طالباً منه أن يقف على تلك الآثار، فالديار خلت من ساكنيها، ولم تعد ريّا تحيي المكان في تلك الصحراء بضحكها وحسن لفتاتها. إن ما بقي من آثار كأنها خال يزيّن وجهاً جميلاً محبّباً.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٥. الطلول، الواحد طلل: ما يبقى من آثار الديار بعد رحيل ساكنيها. العراص، الواحدة عرصة: فناء الدار. يُتابع الشاعر رسم تلك الديار، فما يبدو منها كأنه نجوم تُضيء ظلمة ليل دامس، إنها موحشة في عراص خاليات لا أنيس فيها، يلفّها السكون برداء من السكينة والحزن.

وَنُــؤِيٍّ كَــأَنَّــهُــنَّ عَــلَــيْــهِــ
ـنَّ خِــدَامٌ خُــرْسٌ بِــسُــوقٍ خِــدَالِ[١]
لَا تَــلُــمْــنِــي فَــإِنَّــنِــي أَعْــشَــقُ الْــعُــشَّــ
ـاقِ فِــيــهَــا يَــا أَعْــذَلَ الْــعُــذَّالِ[٢]
مَــا تُــرِيــدُ الــنَّــوَى مِــنَ الْــحَــيَّــةِ الــذَّوَّا
قِ حَــرَّ الْــفَــلَا، وَبَــرْدَ الــظِّــلَالِ[٣]
فَــهْــوَ أَمْــضَــى فِــي الــرَّوْعِ مِــنْ مَــلَــكِ الــمَــوْ
تِ، وَأَسْــرَى فِــي ظُــلْــمَــةٍ مِــنْ خَــيَــالِ[٤]
وَلِــحَــتْــفٍ فِــي الْــعِــزِّ يَــدْنُــو مُــحِــبٌّ،
وَلِــعُــمْــرٍ يَــطُــولُ فِــي الــذُّلِّ قَــالِ[٥]

(١) النؤي: حفر تحفر حول الخيمة لمنع تسرّب المياه إلى داخلها. خِدام، الواحد خدمة: الخلخال. خُرس: لا صوت لها. السوق، الواحد ساق. الخدال: السمينة. يُتابع الشاعر رسم تلك الديار. لقد استرعت النؤي نظر الشاعر، فراح يتتبّعها، فإذا بها خدود محفورة لا تزال رسومها تبدو للعيان وكأنها خلخال استدار حول ساق رجل امرأة مكتنزة فلا يسمع لها صوت.

(٢) يُخاطب الشاعر اللائم ألّا يُكثر عليه اللوم، إنه عاشق متيّم، بل إنه أكثرهم عشقاً لمحبوبته، وأنت من طبعك العذل واللوم يا أكبر عذول.

(٣) النوى: البعد. يقصد الشاعر بالحيّة نفسه. يفخر الشاعر بقوّة جلده وصبره وهو يُعاني في سبيل تحصيل عيشه الكثير؛ فالترحال وعدم الاستقرار في مكان محدّد، جعله يتمرّس ويقوى على مقارعة التشرّد والانتقال من مكان إلى آخر، فلا الحرّ الشديد يُؤثر فيه ولا البرد القارس يفلّ من عزيمته.

(٤) أمضى: أقوى نفاذاً. الروع: شدّة الخوف. أسرى، على وزن أفعل من السرى: السير ليلاً. يُقارن الشاعر بينه وبين ملك الموت، الذي يتوكّل بقبض أرواح، ولما كان أمضى كان أسرع وأقوى وأفعل من ملك الموت الذي لا يتعامل مع الوجود الإنساني مكانياً وزمانياً، بل إنه يتخطّى عوامل الزمان والمكان؛ فالشاعر أقتل من ملك الموت، لأنه شجاع لا يرهب الموت، بل إنه من صنّاع الموت.

(٥) الحتف: الموت. يدنو: يقرب. قالٍ: كاره. يُعلن الشاعر عن عشقه للموت إذا كان =

نَـحْـنُ رَكْـبٌ مِـلْـجِـنٍّ فـي زِيِّ نَـاسِ
فَـوْقَ طَـيْـرٍ لـهَـا شُـخُـوصُ الْـجِـمَـالِ[١]
مِـنْ بَـنَـاتِ الْـجَـدِيـلِ تَـمْـشِـي بِـنَـا فـي الـ
ـبِـيـدِ مَـشْـيَ الأيَّـامِ فـي الآجَـالِ[٢]
كـلُّ هَـوْجَـاءَ لِـلـدَّيَـامِـيـمِ فِـيـهَـا
أَثَـرُ الـنَّـارِ فـي سَـلِـيـطِ الـذُّبَـالِ[٣]
عَـامِـدَاتٍ لِـلْـبَـدْرِ وَالْـبَـحْـرِ وَالـضِّـرْ
غَـامَـةِ ٱبْـنِ الـمُـبَـارَكِ الـمِـفْـضَـالِ[٤]

= عزيز النفس، وهو يكره العيش في ظلّ الذلّ والمهانة؛ فالحياة كرامة الأحرار في عالم يسوده الظلم والكراهية والاستعباد.

(١) الركب، الواحد راكب. ملجن، أدغم من بالجنّ، والإدغام كثير عنده. الزي: اللباس. يُتابع الشاعر واصفاً شجاعته مع صحبه، إنهم جنّ في شجاعتهم ومواجهتهم للأخطار، وإن يكونوا يتلبّسون أشكال البشر، وهم يتّخذون نياقاً تطير في مجاهل الصحراء بسرعة عظيمة.

(٢) و (٣) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٥. الجديل: فحل كريم كان العرب ينسبون إليه الإبل. البيد، الواحدة بيداء: الصحاري. الآجال، الواحد أجل: الأعمار. الهوجاء من النياق: السريعة النشيطة. دياميم، الواحدة ديمة: المفازة لا ماء فيها. السليط: الزيت. الذبال، الواحدة ذبالة: الفتيلة. يتابع الشاعر وصف النياق التي يتّخذها وصحبه؛ إنها من بنات جديل ذلك الفحل الكريم الذي ترك أجيالاً عظيمة من النياق، وهي تمتاز بسرعتها تقطع الآماد كالأيام تقطع آجال البشر فتوصلهم إلى نهاية رحلة الحياة، وتلك النياق لمداومتها قطع الصحاري الظمأى إلى المياه أضناها السير وأهزلها وألهبتها الصحراء بقيظها، فكأنها فتيلة ذبال تلفظ أنفاسها الأخيرة.

(٤) يتخلّص الشاعر من حديثه عن النياق التي استعان بها وسيلة للوصول إلى ممدوحه. عامدات: قاصدات. البدر: القمر. الضرغامة: من أسماء الأسد. المفضال: الكريم الجواد. تلك النياق وسيلة الشاعر ليمثل بين يدي ممدوحه؛ إنه جميل الطلعة، يؤنس النفس ويسرّ العين، كريم كرم البحر الذي لا يُحدّ كرمه، يُعطي ولا يسأل ولا يمنن، أسد ذو مهابة، شجاع بطل تذلّ له سائر الأبطال؛ إنه ابن مبارك كريم، أفضاله عميمة.

مَـنْ يَـزُرْهُ يَـزُرْ سُـلَـيْـمَـانَ فـي الـمُـلْـ
ـكِ جَـلَالاً وَيُـوسُـفـاً فـي الْـجَـمَـالِ[١]
وَرَبِـيـعـاً يُـضَـاحِـكُ الْـغَـيْـثُ فِـيـهِ
زَهَـرَ الـشُّـكْـرِ مِـنْ رِيَـاضِ الـمَـعَـالِـي[٢]
نَـفَـحَـتْـنَـا مِـنْـهُ الـصَّـبَـا بِـنَـسِـيـمِ
رَدَّ رُوحـاً فـي مَـيِّـتِ الآمَـالِ[٣]
هَـمُّ عَـبْـدِ الـرَّحْـمٰـنِ نَـفْـعُ الـمَـوَالِـي
وَبَـوَارُ الأعْـدَاءِ وَالأمْـوَالِ[٤]
أَكْـبَـرُ الْـعَـيْـبِ عِـنْـدَهُ الْـبُـخْـلُ وَالـطَّـعْـ
ـنُ عَـلَـيْـهِ الـتَّـشْـبِـيـهُ بِـالـرِّئْـبَـالِ[٥]

---

(١) ورد البيت في الخصائص، لابن جني ١: ٣٠٢، دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٢٧٣. يجمع الشاعر في ممدوحه مواصفات الكمال الإنساني ممثّلة بسليمان عليه السلام النبي الملك؛ فملكه شمل عالم البشر والحيوان والجنّ، فقد امتلك عناصر القوّة كاملة على وجه الأرض، فضلاً عن جمال خلقة يوسف عليه السلام وحكمته وعلمه.

(٢) يُتابع الشاعر مدح ممدوحه، إنه ربيع دائم النضرة والجمال واللطف والأنس، وهو يتفاعل مع الغيث، يتمثّل فيه الكرم بأجمل صوره وأكثرها بهاءً ولقد أجمل صورة اكتملت فيها صور تامة في مجالات العظمة والسؤدد.

(٣) نفحت الصبا: هبّت. الصبا: ريح لطيفة شرقية. يُردف الشاعر متمّماً حديثه؛ فقد تناقلت الرياح اللطيفة أخبار كرم الممدوح بحيث أحيت في نفسه آمالاً ميتة، علّه يحصل على ما يلطّف قيظ حاجته إلى المال.

(٤) لقد تقاسمت عبد الرحمن هموم؛ منها ما يهبّ على الموالي سعادة وغنًى وراحة بال لجوده وكرمه، ومنها ما يهبّ ناراً وموتاً وهلاكاً ودماراً على الأعداء لشجاعته وقوّته.

(٥) الرئبال: من أسماء الأسد. يصوّر الشاعر ما يكره الممدوح من العيوب؛ فأرذلها البخل؛ إنه عدوّه اللدود، فلا يتآلف معه ولا يرضاه لنفسه، وكذلك لا يقبل أن يُشبّه بالأسد، فمهما يكن شجاعاً وقوياً، فهو حيوان دوني، فالممدوح أقوى وأشجع من الأسد وأكثر مهابة وحكمة.

وَالْـجِـرَاحَـاتُ عِـنْـدَهُ نِـعَـمَـاتٌ
سُـبِـقَـتْ قَـبْـلَ سَـيْـبِـهِ بِـسُـؤَالِ(١)
ذَا الـسِّـرَاجُ الـمُـنِـيـرُ هٰـذَا الـنَّـقِـيُّ الْـ
ـجَـيْـبِ هٰـذَا بَـقِـيَّـةُ الأبْـدَالِ(٢)
فَـخُـذَا مَـاءَ رِجْـلِـهِ وَٱنْـضَـحَـا فِـي الْـ
ـمُـدْنِ تَـأْمَـنْ بَـوَائِـقَ الـزِّلْـزَالِ(٣)
وَٱمْـسَـحَـا ثَـوْبَـهُ الْـبَـقِـيـرَ عَـلَـى دَا
ئِـكُـمَـا تُـشْـفَـيَـا مِـن الإِعْـلَالِ(٤)
مَـالِـئـاً مِـنْ نَـوَالِـهِ الـشَّـرْقَ وَالْـغَـرْ
بَ وَمِـنْ خَـوْفِـهِ قُـلُـوبَ الـرِّجَـالِ(٥)

---

(١) السيب: العطاء. يروى «نغمات» بالغين بدلاً من «نعمات» بالعين. إن من طبيعة الممدوح المبادرة بالعطاء، وهذا ما يدخل على قلبه السرور، وإذا سأله سائل عطاءً، فهذا يُؤلمه لأنه غفل عن صاحب حاجة وسمع تضرّعاً ورأى انكساراً ممَّا يزيد ألمه ويُشعره بالتقصير.

(٢) تتوالى الصفات المحبَّبة لدى الممدوحين يصبّها الشاعر صبًّا على ممدوحه؛ إنه سراج مشعّ يُضيء عتمة وظلمة الحياة، فيه يهتدي الضائعون إلى سبل الحياة، ونور يأنس إليه كلّ محتاج، إنه خالٍ من العيوب التي تدنّس الوجود الإنساني، بقية الأبدال الذين حلّوا محل النبي ﷺ للقيام بدعوته وهداية البشر، فضلاً عن إقامة شرع اللّه عزّ وجلّ في أرضه.

(٣) نضح: رشّ. بوائق، الواحدة بائقة: دواهي. يُخاطب الشاعر صاحبيه طالباً منهما أن يقوما برشّ وضوء رجله في المدن تجنّباً من الزلازل التي تدمر مدن الخطاة، فيتطهرا به، لطهر الممدوح وصلاحه.

(٤) البقير: قميص بلا كمين من ملابس النسوة. الإعلال: المرض. ويتابع مخاطباً صاحبيه أن يستعينا بثوبه تبرّكاً به فيشفيان من ما ألمّ بهما من الأمراض.

(٥) إن الممدوح مصدر سعادة أهل الشرق والغرب يبذر جوده فيهما بلا حساب فينعم البشر برفده من الموالي والأصحاب، أما الأعداء فأمرهم مختلف موت وخراب ودمار وخوف يملأ قلوبهم منه.

قَـابِـضـاً كَـفَّـهُ الْـيَـمِـيـنَ عَـلَـى الـدُّنـ
ـيَـا، وَلَـوْ شَـاءَ حَـازَهَـا بـالـشِّـمَـالِ[١]
نَـفْـسُـهُ جَـيْـشُـهُ وَتَـدْبِـيـرُهُ الـنَّـصْـ
ـرُ، وَأَلْـحَـاظُـهُ الـظُّـبَـى وَالْـعَـوَالِـي[٢]
وَلَـهُ فـي جَـمَـاجِـمِ الـمَـالِ ضَـرْبٌ
وَقْـعُـهُ فـي جَـمَـاجِـمِ الأَبْـطَـالِ[٣]
فَـهُـمُ لاتِّـقَـائِـهِ الـدَّهْـرَ فـي يَـوْ
مِ نِـزَالٍ وَلَـيْـسَ يَـوْمَ نِـزَالِ[٤]
رَجُـلٌ طِـيـنُـهُ مِـنَ الْـعَـنْـبَـرِ الْـوَرْ
دِ وَطِـيـنُ الْـعِـبَـادِ مِـنْ صَـلْـصَـالِ[٥]
فَـبَـقِـيَّـاتُ طِـيـنِـهِ لَاقَـتِ الْـمَـا
ءَ فَـصَـارَتْ عُـذُوبَـةً فـي الـزُّلَالِ[٦]

(١) ومن مزايا الممدوح القناعة على غناه وزهده ما في أيدي الآخرين ولو شاء لما أبقى لمخلوق شيئاً فحاز الوجود بأكمله.

(٢) الظبى، الواحدة ظبة: حدّ السيف. العوالي: الرماح. إنه قوام جيشه، فبالممدوح تقوم الحروب وتقعد، وهو موفّق دائماً، فالنصر حليفه؛ إنه مهيب فنظراته الجادّة بمثابة سيوف ورماح في لحظة غضبه.

(٣) و (٤) الجماجم، الواحدة جمجمة: الرؤوس، يمدح الشاعر ممدوحه بعظم جوده، إنه يُتلف سائر ماله، ولكنه في المقابل يستطيع الاستعاضة عنه بإتلاف أرواح أعدائه، فيقطع رؤوسهم ويستحوذ على أموالهم. لذا فهم يدفعونه عنهم باسترضائه لخوفهم المتجذّر في أعماقهم من فورة غضبه في سائر الأوقات صوناً لأنفسهم وأموالهم وبلادهم.

(٥) و (٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٨. العنبر الورد: الطيب ذو اللون الأحمر. الصلصال: الطين الذي يصنع منه الفخار. البشر صنفان؛ أولهم الممدوح، إنه من كتلة جُبلت طيباً عطراً أحمر اللون وردي السمات والشكل، وثانيهما سائر الناس فقد جبلوا من مادة حقيرة قوامها الصلصال الجاف الجامد، الصنفان مختلفان قيمة ومادة حتى إن ما بقي من مادته مازج الماء فاستحال عذباً ذلالاً فُراتاً، فيه قوام الحياة لسائر البشر.

وَبَـــقَـــايَـــا وَقَـــارِهِ عَـــافَـــتِ الـــنَّـــا
سَ فـصَـارَتْ رَكَـانَـةً فـي الْـجِـبَـالِ(١)
لَـسْـتُ مِـمَّـنْ يَـغُـرُّهُ حُـبُّـكَ الـسِّـلْـ
ـمَ وَأَنْ لا تَـرَى شُـهُـودَ الْـقِـتَـالِ(٢)
ذَاكَ شَـيْءٌ كَـفَـاكَـهُ عَـيْـشُ شَـانِـيـ
ـكَ ذَلِـيـلاً وَقِـلَّـةُ الأشْـكَـالِ(٣)
وَاغْـتِـفَـارٌ لَـوْ غَـيَّـرَ الـسُّـخْـطُ مِـنْـهُ
جُـعِـلَـتْ هَـامُـهُـمْ نِـعَـالَ الـنِّـعَـالِ(٤)
لِـجِـيَـادٍ يَـدْخُـلْـنَ فـي الْـحَـرْبِ أَعْـرَا
ءَ وَيَـخْـرُجْـنَ مِـنْ دَمٍ فـي جِـلَالِ(٥)

---

(١) الوقار: التعقل والرزانة. عافت: كرهت. الركانة: الاستقرار والثبات. ولو أن الممدوح طرح على البشر من ملكاته لكانوا شبيهاً به، ولكنه صبّ على الجبال من وقاره وحلمه ورزانة عقله فكان ثباتها واستقرارها، حيث كره أن يُشاركه بها أحد من البشر.

(٢) و (٣) غرّ: خدع. الشانئ: المبغض، الكاره. يمدح الشاعر ممدوحه بحبّه للسلم، إنه منظر خادع ألّا يرى في ساحات القتال والذي جنّبه الدخول في حروب متواصلة سببه جبن أعدائه ومبغضيه أنهم ألفوا حياة الذلّ واستكانوا خوفاً من بطشه؛ وهم على علم أنهم ليسوا أكفاء له، وهو بدوره ينظر إليهم نظرة دونيّة فلا يستحقّون أن ينزل إلى مستواهم.

(٤) السخط: الغضب. الهام، الواحدة هامة: الرؤوس. يُوضح الشاعر أيضاً الأسباب التي تحول دون فتك الممدوح بأعدائه أنه لا يغضب، فلو سخط عليهم لجعل رؤوسهم تُداس بحوافر خيوله فتُصبح بمثابة نعال لحوافر تلك الخيول، وذلك من مغالاة الشاعر.

(٥) الجياد، الواحد جواد: الخيول. الأعراء، الواحد عرى: الجواد الذي لا يسرج عليه. الجلال، الواحد جلّ: ما يوضع على متن الدابة. يُتابع الشاعر وصف حالة الجياد المغيرة، يُورد للممدوح فرسانه يمتطون تلك الجياد الخالية من أعرائها ثم يستردها وقد تجلّلت بدماء الأعداء التي جفّت.

وَاسْتَعَارَ الْحَدِيدُ لَوْناً وَأَلْقَى
لَوْنَهُ فِي ذَوَائِبِ الأَطْفَالِ[١]
أَنْتَ طَوْراً أَمَرُّ مِنْ نَاقِعِ السُّـ
ـمِّ وَطَوْراً أَحْلَى مِنَ السَّلْسَالِ[٢]
إِنَّمَا النَّاسُ حَيْثُ أَنْتَ وَمَا النَّا
سُ بِنَاسٍ فِي مَوْضِعٍ مِنْكَ خَالِ[٣]

الملك للّه العزيز

دخل عليه يوماً فقال له: وددنا يا أبا الطيب لو كنت اليوم معنا، فقد ركبنا ومعنا كلب لابن ملك فطردنا به ظبياً ولم يكن لنا صقر فاستحسنت صيده. فقال: أنا قليل الرغبة في مثل هذا. فقال أبو علي: إنما اشتهيت أن تراه فتستحسنه فتقول فيه شيئاً من الشعر. قال: أنا أفعل، أفتحب أن يكون الآن؟ قال: أيمكن مثل هذا؟ قال: نعم. وقد حكمتك في الوزن والقافية. قال: لا بل الأمر فيهما إليك. فأخذ أبو الطيب درجاً وأخذ أبو علي درجاً آخر يكتب فيه كتاباً فقطع عليه أبو الطيب الكتاب وقال:

[الرجز]

وَمَنْزِلٍ لَيْسَ لَنَا بِمَنْزِلِ
وَلَا لِغَيْرِ الْغَادِيَاتِ الْهُطَّلِ[٤]

---

(١) الذوائب، الواحدة ذؤابة: الخصلة من الشعر. يصف الشاعر السيوف البيضاء وقد غطّتها الدماء التي جفّت، فإذا بالسواد يُكلّلها، وقد تخلّى عن لونه للأطفال فإذا بهم يشيبون رغم صغر أعمارهم.

(٢) طوراً: تارة. السمّ الناقع: القاتل. السلسال: الماء العذب. يُخاطب الشاعر ممدوحه، بأنه طوراً سمّ زعاف قاتل لأعدائه، وتلك إحدى حالتيه، والثانية أنه تارة أخرى عذب حلو كماء صافية تنساب في الحلق فتنعش الروح والبدن.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٨. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه سرّ حياة الخلق، فيه تقوم حياتهم وتصلب أعوادهم وتتأمّن أقواتهم، فلو خلا مكانه منه لما كان للناس وجود.

(٤) الواو: واو ربّ، الغاديات. السحائب المنتشرة صباحاً. الهطل، الواحدة هاطلة: المفعمة بالماء الكثير. شرع الشاعر يرسم الموقع الذي تدور فيه الأحداث؛ إنه نعم المنزل يندر وجوده، لجمال طبيعته، وهو منزل لا نسكن فيه، ولكنه مسكن سحب تفترش سماءه ملئ بالأمطار التي تصبحه مع انبلاج الفجر.